وما نيل المطالب بالتمني... يا اوباما

روبرت كاغان

مجلة ناشيونال انتريست
عدد يناير-فبراير 2010

The Perils of Wishful Thinking

By **Robert Kagan**

The National Interest ***Magazine***

ترجمة: علي الحارس

روبرت كاغان

- باحث في مركز كارنيغي للسلام العالمي.
- من الموقعين الـ(25) على (مشروع القرن الأمريكي الجديد).
- من الموقعين على الرسالة التي طالبت الرئيس كلينتون بالتحرك ضد النظام المقبور.
- مستشار المرشح الرئاسي جون ماكين لشؤون السياسة الخارجية في الحملة الانتخابية عام (2008).
- عضو هيئة التخطيط السياسي في وزارة الخارجية (1984-1986)، وحينها كان كاتب خطابات وزير الخارجية الأسبق جورج شولتز.
- عضو مكتب الشؤون الأمريكية الداخلية في وزارة الخارجية (1986-1988).
- دكتوراه في التاريخ من جامعة اميريكان.

قبل سنوات عدة، حذر المفكر السياسي هانز مورغنثو (Hans Morgenthau) جيلا من المثاليين الأمريكيين من أن يتخيلوا يوما «تسدل فيه الستارة الأخيرة ويتوقف اللعب في حلبة الصراع السياسي». لكن مثل هذه الآمال عصية على الإلغاء من أذهان أطفال (التنوير) الذين يعتقدون اعتقادا حماسيا بتقدم الإنسان وكماله. لقد رأينا موجة من هذه الآمال في فجر القرن العشرين قبل عقد من اندلاع الحرب العالمية الأولى، ثم عادت إلى الحياة ثانية في أيام مورغنثو فقال قولته تلك في أجواء سلام تلت الحرب العالمية الثانية لكنها سرعان ما تكشفت عن صراع الحرب الباردة، ثم استيقظت ثانية مع نهاية الحرب الباردة حينما عبر فرانسيس فوكوياما تعبيرا قويا عن الفكرة القائلة بأن حقبة من المواجهة الايديولوجية وصراع القوى الكبرى قد انتهت أخيرا دون رجعة، مفسحة المجال لحقبة انتصار الليبرالية وسلام القوة العظمى.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

واليوم نجد ذلك الاعتقاد المثالي نفسه وهو يملي على إدارة اوباما ما ينبغي فعله، وذلك وفق افتراض جوهري يدعي بأن القوى العظمى تشترك في ما بينها حاليا بمصالح مشتركة، وبالتالي يجب أن «لا ينظر إليها باعتبارها لعبة (غالب ومغلوب)» كما افترض اوباما في يوليو 2009. إن مبدأ اوباما في الحكم يستند إلى طريقة «اربح-يربح» و«الوصول إلى نعم». إن «رسالة» الولايات المتحدة الأمريكية تتلخص اليوم، بحسب وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون، في دور الوسيط الأعظم بين الأمم، وحشد باقي القوى نحو مصالح مشتركة أكثر، والسعي إلى حلول مشتركة لمشكلات العالم. وعلى هذا الأساس سعت الإدارة إلى «إعادة تشغيل» العلاقات مع روسيا، والمباشرة بسياسة جديدة من «الطمأنينة الاستراتيجية» مع الصين، وبشكل عام: السعي إلى تحقيق ما دعته كلينتون في 15 يوليو 2009 «حقبة جديدة من الأداء تستند إلى المصالح والقيم المشتركة والاحترام المتبادل».

بالنسبة لإدارة تفتخر بما لديها من براغماتية، يبدو أن ذلك المنهج يحمل كما كبيرا من التفكير المبني على الأماني. فلا الرئيس ولا مستشاروه يعترفون بأنه إلى جانب المصالح المشتركة بين القوى العظمى ثمة افتراق، وتصادم أحيانا، في المصالح لا يمكن أن يكون بالضرورة قابلا للتسوية عبر تفهم أفضل. وترفض الإدارة ومن يدافع عنها أي رأي يفترض وجود مصالح متضاربة بين القوى العظمى قد تعرقل التعاون في ما بينها. إن هذه البديهية التي ينتجها التفكير الواقعي هي نفسها ما يدعوه أحد الاوباميين المتحمسين، من أمثال فريد زكريا، بـ«الواقعية المزيفة».

كما إن هؤلاء يرفضون الرأي القائل بأن الفوارق الايديولوجية بين القوى العظمى قد تربك الانسجام ما بينها، ويكاد هذا الرأي لا يلقى اعترافا من المفكر السياسي جون ايكنبيري (John Ikenberry) الأستاذ في جامعة برينستون، وهو الشخص الذي شكلت كتاباته الأساس الفكري للخطاب الهام الذي ألقته كلينتون في يوليو الماضي. حيث حاجج ايكنبيري مؤخرا في أن تحقيق نظام عالمي أكثر تعاونا هو أمر ممكن لسبب محدد هو أن «معظم الدول القوية والغنية في العالم هي دول ديمقراطية حاليا» وأن «القوى العظمى

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

نفسها ديمقراطية». من المفترض أن الرئيس ومستشاريه لا يحملون مثل هذه الأوهام، ولكنهم لا يعترفون أيضا بالمشكلات التي تطرحها الحقيقة القائلة بأن القوى العظمى تعيش في الواقع انقساما بين الديمقراطية والاستبداد. كما إن تصريحاتهم وسياساتهم تبدو غير عابئة بإمكانية أن يكون للحكومتين الاستبداديتين في الصين وروسيا منظور مختلف عن العالم، وان تقوم بحساب مصالحهما على أساس مختلف، وذلك لأنهما دولتان استبداديتان.

قد يشعر المرء بأن إدارة اوباما تقوم بصياغة استراتيجية عالمية من أجل عالم آخر لم يعد موجودا، أو بعبارة أصح: لم يوجد أبدا. لقد كانت التوقعات المتعلقة بما سيكون عليه العالم بعد عام 1989 تتخيل عالما انحسر فيه التنافس الجيوسياسي لصالح التعاون الجيواقتصادي. وبحسب فهم مورغنثو، فإن القوانين القديمة لسياسات القوى العظمى تمت إعادة صياغتها بالانتصار العالمي لليبرالية. فكان من المتوقع أن يسود عصر من التلاقي، وكل ما كان مطلوبا لتحقيق ذلك هو أن تكون أمريكا حكيمة بما يكفي لقيادة العالم نحو الاتفاق على القضايا المهمة التي ينبغي أن تتوافق عليها جميع القوى على نحو طبيعي. وبحسب القصة التي ترويها إدارة اوباما، جاء جورج بوش الابن ودمر هذه الفرصة العظيمة بسياساته العدائية وغير الواقعية. والآن، وقد رحل بوش، يمكن للعالم أن يتابع عملية التلاقي في ظل التوجيه الملهم للرئيس الأمريكي الجديد.

يغيب عن هذه القصة تطوران كبيران حصلا خلال العقد الماضي: عودة ظهور تنافس القوى العظمى بين أمريكا والصين وروسيا والهند واليابان وغيرها، والمرونة المفاجئة للرأسمالية الاستبدادية كبديل قابل للحياة عن الرأسمالية الليبرالية الديمقراطية. لقد أفرزت هذه التركيبة في روسيا اتجاها قوميا يتطلع إلى استعادة منزلة الماضي مما يجعل من تحقيق التعاون أمرا صعبا، بل مستحيلا أحيانا. إن إصرار روسيا على فرض نطاق جيوسياسي من المصالح على مجال هيمنتها الامبريالية السابقة يعسر تحاشي الوقوع في حلقة «الغالب والمغلوب» في شرق ووسط أوروبا وفي القوقاز. كما إن المصلحتين

www.iraqfuture.net© كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل

الروسية والأمريكية تفترقان حول إيران. فالرغبة المفهومة لروسيا بالمال والنفوذ، وهو ما سيستحيل تنفيذه عند أي تغيير حقيقي في السياسة الأمريكية تجاه طهران، تتغلب على أية مصلحة مشتركة مع أمريكا في قضية حظر التخصيب. كما إن سياسات القوى العظمى تتدخل حتى في أقل المصالح المشتركة شأنا: التغير المناخي؛ فالصينيون الذين يعتقدون أن أمريكا عقدت عزمها على منعها من الهيمنة على جنوب آسيا، لا يمكنهم أن يمنعوا أنفسهم من اعتبار الضغط الأوروبي للحد من انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون إلا كجزء من ذلك المسعى، وذلك على الرغم من الجهد الجهيد الذي تبذله إدارة اوباما في تقديم التطمينات.

لم تكن تلك إلا بعض الأمثلة على عالم يسوده التباعد أكثر من التلاقي، وتتعرض فيه حتى المصالح المشتركة التي عدّدها الرئيس اوباما والوزيرة كلينتون إلى سيل من المصالح المتصادمة للقوى العظمى مع الطموحات المتنافسة ووجهات النظر العامة المختلفة. ويمكن أن نضيف هنا أوجها أخرى لفشل «حقبة الأداء الجديدة»، منها: رفض إيران لليد الممدودة بإخلاص من الرئيس اوباما، فشل عملية السلام في الشرق الأوسط على الرغم من الجهود المضنية التي بذلتها الإدارة، الفشل في الحصول على عون صيني حقيقي في كوريا الشمالية. وينبغي أن ينظر إلى هذه الأوجه باعتبارها علامات تدل على أن العلاقات الدولية لم تدخل بشكل حقيقي في حقبة جديدة، وأن بعض «الصيغ القديمة» التي تصر الوزيرة كلينتون على أنها «لا تنطبق» على الوضع الراهن قد يكون لها قابلية تطبيق أكبر مما يود فريق اوباما الاعتراف به.

لن يكون شجبا لإدارة أوباما ما يسجل عليها من أنها تسلمت مقاليد السلطة وهي تحمل منهجا للتعامل مع العالم غير قادر على العيش في الشروط الواقعية، فهذا يكون في العادة ديدن السنة الأولى لأي رئيس جديد. ومن المؤكد أنه كان حقيقة ما وقع للإدارة السابقة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كم سريعا ستتمكن هذه الإدارة من إعادة ضبط وصياغة منهج يكون أكثر تناغما مع واقع العالم مقارنة بالمنهج الحالي؟

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net